

الخوف من الموت

الكاتب الصحفي

عبد الوهاب مطاوع

رأيت صديقي والأمواج تبتلع
جسده الضئيل.. شلت أوصالي..
فقدت النطق.. لم أستطع حتى أن
أصرخ!

اندفع الصبي الصغير عبد الوهاب مطاوع من باب حجرته إلى مائدة الطعام على الفور .. والتي سبقه في الالتفاف حولها والده وشقيقه الأكبر.. كان شعوره بالجوع الشديد بعد أن لعب لساعات طويلة.. مديده لالتقاط إحدى اللقمت وهماً بوضعها في فمه.. ولكن.. تسللت إلى سمعه همهمات بين والده وشقيقه.. تبين من نظراتهما إليه أنه المقصود بها.. لقد فشلت أن أنجح في الابتدائية بمدرسة دسوق.. ردد ذلك لنفسه.. حاول أن يبتلع الطعام.. ولكن بلا جدوى.. انزوى عبد الوهاب مطاوع داخل نفسه تتوقع بها.. شعر بخجل شديد وبعار أكبر.. قالها لنفسه... أصبحت مثار السخرية والتهمك من أهل داري!

كان لهذا الحدث في نفس عبد الوهاب مطاوع ذى السبع السنوات أثر عميق ظل بداخله طوال عمره، وأصبح المركز الرئيسي الذي دفعه دفعا إلى النجاح وعزم الفشل أبدا بعدها مهما كلفه الأمر من جهد ومعاناة.. كان النظام التعليمي بالمدارس في ذلك الوقت مختلفا عما هو موجود الآن، فالمدارس الحكومية كانت المكان الأفضل لتخريج تلاميذ على مستوى جيد.. وبعد أن فشل عبد الوهاب في الحصول على الابتدائية من مدرسة دسوق الحكومية اضطرت أسرته لإدخاله مدرسة خاصة أهلية ظل بها سنتين ثم تمكن من النجاح والانتقال مرة أخرى إلى مدرسة حكومية نظامية ليعود من جديد تلميذاً مجداً. وأصبح عبد الوهاب مطاوع في العاشرة من عمره ويصف تلك الفترة في حياته قائلاً.. «كنا نقيم ببلدتنا دسوق في شارع أشبه بشارع نجيب محفوظ في روايته.. ذلك المجتمع المختلف والمتجانس في آن واحد المتقارب والمتباعد بين

نوعيات من البشر.. جمع الشارع العديد من الطبقات المتوسطة والفقيرة وتجاور الجميع.. نشأ أطفال هذا الحي معاً يلعبون ويذهبون إلى مدارسهم معاً..

ويتذكر عبد الوهاب هنا.. صديقه رفعت «ابن الحداد».. ذلك الصبي صاحب الوجه الأسمر والجسد الفارع كعمود من الأبنوس وإحساس بالذنب والمسئولية كلما تذكره.

كان الصبي رفعت بمجرد مشاهدته ورؤيته لعبد الوهاب تتبدل شخصيته فجأة.. فيقوم بحركات استعراضية بهلوانية.. يقفز في الهواء.. محاولاً لفت نظر من حوله ونظراته مصوبة دائماً نحو عبد الوهاب.. الذى أحس بأن صديقه يعتمد فعل ذلك عند رؤيته ولكنه لم يستطع أن يعرف السبب الحقيقي وراء سلوكه العجيب وتصرفاته الغريبة!!.. هل يريد أن يشعره بالتميز والتفوق عليه بتلك الحركات البهلوانية؟ يقول الكاتب الكبير عبد الوهاب مطاوع.. لم أجد تفسيراً حقيقياً لما حدث فى أحد الأيام.. فى ذلك الوقت.. كنت أسير بجوار النهر ببلدتي دسوق.. وهناك على بعد خطوات منى كان يقف رفعت مع مجموعة من الصبية.. وما أن رآنى أقترب منه رويداً رويداً وإذا به يقفز فى النهر، كنت أصبحت ملاصقاً لحافة النهر.. وأصبحت رؤيتى مباشرة له.. رأيتة فى مشهد كأنه كابوس.. «رفعت» يغوص بالمياه ثم يظهر على سطحها.. ويغوص مرة اخرى والأمواج الشديدة تغطى جسده النحيل ويدها تضربان الماء فى حالة دفاع مستميت عن الحياة وعيناه الجاحظتان مازالتا متعلقتين بى.. ونظرة الفزع الرهيبة تطل منهما بوضوح ظاهر..

تسمرت قدماى بالأرض.. صرخ الناس غريق.. شلت المفاجأة أوصالى..
جف لسانى فى حلقى.. أطبقت شفتى على صمت عميق.. أصبحت
الأشياء تتدافع أمامى فى صورة مهزوزة.. اختفى رفعت فى لمح البصر..
وابتلعته الأمواج العاتية.. تلاشى الجسد الذحيل..

«بعد دقائق.. أو ربما ساعات لا أعلم.. عدت إلى منزلى والصمت
المطبق يلفنى.. تسللت إلى حجرتى.. انزويت فى أحد أركانها أرتعد
من الخوف.. وجاء الليل.. لم يغمض لى جفن.. صورة صديقى رفعت لا
تفارق خيالى.. سمعت طرقات عنيفة على باب منزلى.. تناهى إلى سمعى
صوت والد رفعت يسأل أسرتى عنه.. لم يحصل على إجابة فهم لا
يعلمون ما حدث لابنه.. شعرت بذنب كبير مازلت أحسه حتى الآن..
مازلت أشعر بأننى مسؤل عن موت صديقى!»

ويسقط من وعى الذاكرة بين صفحات الأيام كثير من الأحداث
تتحول داخل الأعماق إلى أسرار.. وتتوالى أيام جديدة فى حياة عبد
الوهاب مطوع.. انتقل فيها إلى المرحلة الثانوية وبالتحديد فى سنة أولى
ثانوى تلك المرحلة التى كان لها بعد الأثر فى حياته، حيث أصيب
عبد الوهاب بحمى روماتيزمية وكان امتحان الدور الأول للسنة الدراسية
على الأبواب؟؟ ظل عبد الوهاب حبيس الفراش شهراً كاملاً.. لا يتحرك
إلا بأمر الطبيب.. كان الكتاب صديقه الوحيد فى تلك الفترة.. وتعرف
خلال تلك الفترة على أدب الكاتب نجيب محفوظ الذى لم يكن معروفاً
فى ذلك الوقت إلا فى أوساط المثقفين.. قرأ روايته «فضيحة فى القاهرة»
التي قدمتها السينما باسم «القاهرة ٣٠».. وبدأ تعلق عبد الوهاب مطوع

بالأدب يزداد يوماً بعد يوم وارتباطه بالأديب نجيب محفوظ يظهر من خلال قراءته لكل رواياته فى ذلك الحين «خان الخليلي».. «زقاق المدق».. «والثلاثية»..

ووقع عبد الوهاب مطاوع فى صراع عنيف بين الأدب والصحافة بعد أن حصل على التوجيهية.. والتحق بكلية الآداب قسم صحافة.. وككل الدارسين من طلاب الصحافة كان لابد من التدريب بإحدى المؤسسات الصحفية.. تقدم عبد الوهاب بخطاب توصية إلى الأديب الكبير إحسان عبد القدوس بمجلة روز اليوسف وبدأت خطواته الفعلية فى طريق صاحبة الجلالة من داخل هذه الدار.. وحدث له ما يمثل سبباً جوهرياً لتغيير مسار حياته العلمية بعد ذلك وبأسرها..

ماذا حدث؟.. فى اليوم الأول له بالمجلة.. تقدم إلى أحد نواب رئيس التحرير وعرفه بنفسه.. وبدون مقدمات.. فوجئ به يطالبه بإحضار أخباره فوراً.. وقع عبد الوهاب فى حيرة شديدة.. كيف يستطيع القيام بذلك وهو لا يعلم من أى جهة يبدأ بها.. وما نوعية الأخبار المطلوبة.. طرح هذه التساؤلات على نائب رئيس التحرير واصطدم بصمت مطبق من ذلك الرجل المتجهم ذى الوجه العابس.. انسحب عبد الوهاب من الحجرة دون أن يلتفت وراءه بإهمال كبير وتجاهل فظ له.. وبدأ بصعوبة يجمع الأخبار ويعود ومعه بعض منها وفى كل مرة كان يصطدم بتجاهل نائب رئيس التحرير.. ومرت شهور.. وقرر بينه وبين نفسه أن يتجرأ ويسأله.. هل نجح فى الحصول على أخبار معقولة.. أم فشل؟

طرق باب أستاذه واستأذن فى الدخول.. تقدم خطوة إلى الأمام

محاولاً أن يستعيد رباطة جأشه وبصوت متزن حاول ألا يظهر ضعيفاً
سأل: إيه رأيك يا أستاذ.. فى الأخبار التى أقدمها لسيادتك.. وكانت
الطامة الكبرى.. صرخ الأستاذ فى وجه التلميذ صرخة مدوية اهتزت
لها الحجرة بما فيها.. كان صوته كزئير الأسد الذى هم بالتهام فريسته
مشهراً أنيابه فى الهواء فى لحظة قنص فريدة..

قال له «إنت فاكِر نفسك شخصية مهمة.. إنت فاكِر إن مفيش غيرك
فى المجلة»!!

وقع تصرف وسلوك الأستاذ على التلميذ كوقع الصاعقة.. اختفت
الدماء من وجهه.. تدلى رأسه على كتفيه فى خذى ومهانة.. تراجع
إلى الخلف.. لم يدر كيف تمكن من الفرار من داخل قفص الأسد!!..
لم يرحم نائب رئيس التحرير ذلك الكيان الهش.. لم يمد له يداً حنوناً
تحتضن بدايته..

أعلن عبد الوهاب العسيان.. قرر التوقف عن التدريب داخل هذه
المجلة ومع الأستاذ الفظ..

هل انتهى الأمر عند هذا الحد.. أم أنه اتخذ شكلاً مختلفاً؟

أثناء جلوس عبد الوهاب مطاوع داخل كافتيريا كلية الآداب يتسامر
مع بعض زملائه وكان بينهم مصطفى شردى.. وكان فى ذلك الوقت
طالباً فى نفس دفعة عبد الوهاب مطاوع لكنه كان يمارس الصحافة
كمحترف فكان يعمل مدير مكتب بورسعيد لجريدة أخبار اليوم.. اقترب
منه وسأله.. أين تتدرب الآن يا عبد الوهاب؟

أخبره بما حدث له من نائب رئيس تحرير مجلة روز اليوسف

وبقراره بالتوقف عن الاستمرار فى التدريب بها.. وصدمته الكبرى بتلك
المشاعر التجمدة من أستاذه الأول فى بلاط صاحبة الجلالة..

قام مصطفى شردى بتهدئة زميله.. وأخذ من يده بعد أن أخبره أنهما
سيقابلان شخصًا عزيزًا عليه ويريد أن يعرفه به.. وذهبا معا.. أين؟
إلى مجلة روز اليوسف.. وإلى نفس الحجرة التى هرب منها.. دخل مع
زميله مصطفى.. ولكن كان هناك شخص آخر.. بمجرد أن رأى مصطفى
شردى اندفع إليه بقوة فاتحا ذراعيه يحتضنه فى حنان أخوى أو أبوى
على الرغم من صغر سنه.. كان هذا الشخص هو أحمد بهجت «الكاتب
الكبير».

وانطلق فى كلمات سريعة مرحبًا بالضيفين.. شعر عبد الوهاب
بسرعة الدفء الإنسانى العميق يشع من سلوكه وبروح الفنان الحساسة
وبرقة الإنسان تنشر رحيقها وعبقها بالمكان البغيض الذى افتقد فيه
الأمان تحول بوجود أحمد بهجت إلى بستان من الجمال والتواضع.
وتبناه أحمد بهجت وتولاه برعايته.. أصبحت كظليل لا يفترقان..
وبعد أداء امتحان الليسانس سافر عبد الوهاب إلى بلدته دسوق لرؤية
أسرته ثم عاد من جديد إلى مجلة روز اليوسف.. دخل إلى مكتب أحمد
بهجت.. لم يجده. انتقل للعمل بجريدة الأهرام..

ويقول الكاتب الكبير عبد الوهاب مطاوع عن مشاعره فى ذلك الحين.
لم أتردد لحظة فى الإسراع خلفه وبمكتبه الأهرام.. وقف عبد الوهاب
أمامه موجهًا إليه لوم وعتاب الابن إلى أبيه والصديق إلى صديقه..
قائلًا.. لماذا تركتني؟ ماذا أفعل بدونك؟

انطلقت ضحكة مجلجلة من أحمد بهجت أشاعت روح المرح.. فتحول العبوس على وجه عبد الوهاب إلى ابتسامة مشرقة.. قال أحمد بهجت له.. لقد قررت أن تعمل بالأهرام.. وأخبره أن الصحفي الكبير صلاح منتصر سوف ينشئ قسمًا جديدًا «التحقيقات» وأنه سوف يلحق به.

وقد كان.. عمل عبد الوهاب بالأهرام بقسم التحقيقات أسبوعيًا واحدًا ونشر له أول تحقيق في صفحة كاملة. وبدأت المسيرة وثبتت الخطوة وأصبحت أكثر رسوخًا وأكثر ثقةً وأكثر إيمانًا.. ولم ينس الكاتب الصحفي الكبير أن يمد يده دائمًا وبها الكثير من العطاء والدفء والفهم للبراعم الشابة..

□□□